الفصل الأول
الجغرافيا التاريخية والدينية

أولاً : معلومات وحقائق

١ - الموقع الجغرافي :

تقع مدينة القدس على خط طول خمسة وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة شرقي خط جرنيتش، وعلى خط عرض واحد وثلاثين درجة وسبعة وأربعين دقيقة شمالاً. وهي تقع على سلسلة تلال ذات سفوح تميل من الغرب إلى الشرق، يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين سبعمائة وعشرين وثمانمائة وثلاثين متراً. وتبعد المدينة - في خطوط مستقيمة - عن البحر المتوسط اثنين وخمسين كيلومتراً، وعن البحر الميت اثنين وعشرين كيلومتراً، وعن البحر الأحمر مائتين وخمسين كيلومتراً.[١] وأما بالنسبة للطرق المعبدة التي تربط بين القدس وكل من المدن الفلسطينية والعواصم العربية، فهي كما يلي: عكا (١٥٠)، نابلس(٦٥)، الخليل (٣٦)، يافا (٦٢)، غزة (٩٤)، عمان(٨٨)، دمشق (٢٩٠)، بيروت (٣٨٨)، القاهرة (٥٢٨)، بغداد (٨٦٥).[٢]

تشير الحفريات الأثرية إلى أن النواة الأولى لمدينة القدس أسست على تلال الضهور (الطور أو تل أوفل) التي تطل على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من الحرم القدسي الشريف، ومساحتها نحو ٥٥ دونماً. وأسهمت مياه عين أم الدرج التي تقع في الجانب الشرقي من تلال الضهور في توفير المياه للسكان. ومع مرور الزمن، انتقلت النواة الأولى الى تلال آخرى، مثل مرتفع بيت الزيتون (بزيتا) في الشمال الشرقي، ومرتفع ساحة الحرم (مدرياً) في الشرق، ومرتفع صهيون في الجنوب الغربي، وهي المرتفعات التي تقع داخل السور فيما يعرف اليوم بالقدس القديمة، ومساحتها حوالي كيلومتراً واحد، وتقع فيها الأماكن المقدسة عند الأديان الثلاثة.[٣]

وتتميز القدس بموقع جغرافي استراتيجي محمي بخطوط دفاعية طبيعية. فمن جهة، تحيط بالمدينة مجموعة كبيرة من الأودية، منها ثلاثة أودية هي : وادي

جهنم من الشرق ويعرف أيضاً بوادي سليمان أو وادي يهوشافاط أو وادي ستنامريم*، ووادي الجبانين من الغرب، ثم وادي الربابة من الجنوب والجنوب الغربي. وأما الجهة الشمالية، فيتصل المرتفع مع أرض الحرم الشريف بأرض مستوية لا يوجد فيها عوائق طبيعية. لذلك كانت معظم الحملات العسكرية التي استهدفت المدينة تعسكر على جبل المشارف، في الجهة الشمالية من القدس، وتشن غاراتها انطلاقاً منه.[٤] كما أن جميع الفاتحين كنبوخذ نصر، والاسكندر، وبومبي، وعمر بن الخطاب دخلوا المدينة من الشمال.[٥]

ومن جهة أخرى، فإن طبيعة العامل الطبوغرافي للقدس يجعلها قلعة حصينة، فهي محاطة بالجبال من جميع الجهات. وميزة هذه الجبال تكمن في كونها مراصد للإنذار المبكر، وتمنح المدافعين فرصة لملاقاة الغزاة قبل وصولهم للمدينة. فمن ناحية الشرق، يقع جبل الزيتون (جبل الطور) الذي يرتفع نحو ٨٣٠ متراً عن سطح البحر، مطلاً علي جميع المنطقة الشرقية وحتى وادي الأردن. ومن ناحية الغرب، تحيط بالمدينة سلسلة من الجبال أعلاها جبل النبي صموئيل الذي يشرف على المنحدرات الغربية، ويطل على المنطقة الساحلية من فلسطين. ويرتفع جبل المشارف (سكوبس) مطلاً ومشرفاً على منطقة تصل حتى مدينة رام الله في الجهة الشمالية من القدس، وقد دعى بذلك لأنه يشرف على المدينة، والناظر لها من هذا الجبل يرى لها منظراً جميلاً حيث يشاهد أيضاً الطور والبحر الميت ومنطقة الكرك. وأما من الثغر الجنوبي للمدينة، فيقع على جبل المكبر الذي يشرف بدوره على المنطقة الجنوبية إلى مسافة تتجاوز مدينة بيت لحم.[٦]

وسمي هذا الجبل بهذا الاسم، لأن الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وقف عليه وكبر ساعة أطل على بيت المقدس قادماً من الحجاز ليتسلم المدينة.[٧]

ومع تزايد عدد سكان المدينة باستمرار، لم يعد موضع المدينة القديم يستوعب السكان والمباني داخل السور، فانتشر العمران خارج السور في جميع الجهات،

وظهرت الاحياء الحديثة التي تعرف بالقدس الجديدة، اضافة إلى الضواحي التي ارتبطت بالمدينة وكانت في القديم قرى تابعة لها مثل قرى شعفاط، وبيت حنينا، وسلوان، وعين كارم، ودير ياسين، والقسطل (شكل مرفق). كما زحف العمران على الجبال المجاورة، فأقيمت عليها أحياء جميلة مثل حي المشارف على جبل المشارف، وحي القطمون على جبل القطمون، وحي المكبر على جبل المكبر.[٨]

٢- أسماء القدس :

تتجلى أحداث القدس التاريخية في الأسماء العديدة التي أطلقت على المدينة. فقد عمّر العرب الكنعانيون بيت المقدس قبل نحو ٥٠٠٠، ودعوها (أورسالم) نسبة إلى سالم أو شالم بمعنى السلام، وأور كلمة سومرية تعني مدينة. وقد انتقل هذا الاسم إلى الأمم القديمة عن طريق العرافيين حيث حرّف إلى (يروشالايم) عند اليهود، و(اوشامام) عند الفراعنة، و(هيروسوليما) عند اليونان والرومان، و(جروسالم) عند الغربيين.[٩]

وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أغار بنو اسرائيل على ارض كنعان. وحاربت القبيلة الكنعانية العربية التي استقرب منذ فجر تاريخها في مدينة القدس والجبال المحيطة بها، بني اسرائيل نحو مائتي سنة. وخلال تلك المدة، اشتهرت القدس باسم (مدينة يبوس)، وهو اسم اطلقه يوشع -قاد بني إسرائيل- نسبة لاسم زعيم القبيلة الكنعانية. وحين دخل اليهود المدينة سنة ٩٩٧ قبل الميلاد بقيادة داود عليه السلام، اصبحت تعرف باسم (مدينة داود)، إذ أنه جعلها مقراً لحكمه.[١٠]

ولكن اسم (مدينة داود) الذي أطلق على القدس لم يدم طويلاً، فقد أخذت (أورشليم) تحل محلها. وعلى الرغم من انتهاء النفوذ السياسي لليهود الذي لم يستمر أكثر من ٧٣ سنة، إلا أن الفرس واليونان والرومان الذين تعاقبوا في السيطرة على المدينة استمروا في استخدام اسم (اورشليم)، وهو كما ذكرنا تحريف لاسمها العربي الكنعاني (أورسالم- أورشاليم).

وفي عام ١٣٥ ميلادية، دمر الأمبراطور الروماني هدريان المدينة ومسحها وشتت أهلها، وغير أسمها إلى (إيليا كابيتولينا) ويقال معناها بيت الله – ومع أن الامبراطور قسطنطنين أعاد للقدس اسمها القديم (أورشليم) سنة ٣٢٤ ميلادية،إلاّ أن العرب ظلوا يعرفونها باسم (إيليا) حتى يعبد الفتح الاسلامي. فأصبحت تعرف باسم (القدس) و(بيت المقدس) و(القدس الشريف)، أي المكان المطهر من الذنوب، ويقال المنزه عن الشرك والمرتفع، وهي تسميات ثابتة في القرآن والسنة.[١١]

٣– الأماكن المقدسة :

تحتل مدينة القدس مكانة عظيمة في نفوس المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء. وترتكز هذه المكانة عند الأديان الثلاثة بأن عدداً كبيراً من الرسل والانبياء قد عاشوا في القدس، أو كان لهم صلة بها بشكل من الأشكال. ومن هذه الصلات ما يعتبر حقائق تاريخية ومنها ما يبنى على القصص والروايات القديمة ولا يمكن إثباته بالأدلة التاريخية. ويكفي أن نشير إلى ما هو معروف عن صلة الأنبياء إبراهيم ويعقوب واسحق وعيسى ويحيى وزكريا وصالح عليهم السلام ببيت المقدس. وتذهب الروايات المتوارثة إلى أبعد من ذلك، فتربط بين القدس وبين آدم ونوح وسام بن نوح. فقد قيل أن آدم –عليه السلام – دفن في مغارة بين القدس ومسجد ابراهيم، وقيل إن سفينة نوح سارت حتى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت بإذن الله تعالى، وقالت : يا نوح هذا موضع بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من ولدك. وقيل إن سام بن نوح هو الذي اختط القدس وبناها وكان ملكاً عليها، وكان يلقب ملكي صادق.[١٢] وجاء في الأثر أن عبدالله بن عمر قال :« بيت المقدس بنته الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعمرته، وما فيه موضع شبر إلا وقد سجد عليه ملك». وقال مقاتل بن سليمان :« ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى عليه نبي مرسل أو قام عليه ملك مقرب».[١٣]

تعتبر العقيدة الاسلامية الإيمان بالرسل والأنبياء وبالرسالات السماوية أصلاً من أصول العقيدة، إذ أ الدين الإسلامي جاء مصدقاً للرسالات السماوية

السابقة التي حملها الرسل عليهم الصلاة والسلام. ففي أية (٣، ٤) من سورة آل عمران:«نزل عليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوارة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان». وفي أية (١٣) من سورة الشورى :{شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}. ومن هذا المنطلق، فإنه يمكن تحديد أهم الأماكن الاسلامية المقدسة على النحو التالي :[١٤]

أ – المسجد الأقصى : وهو ثاني مسجد بناه ابراهيم عليه السلام بعد الكعبة المشرفة، كما ورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم. والأقصى تعني الأبعد، والمراد بعده عن مكة بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام.

ب – مسجد الصخرة: وله تاريخ عريق، فعنده أتخذ ابراهيم عليه السلام معبداً ومذبحاً. وهي التي أقام يعقوب عليه السلام عندها مسجده بعد أن رأي عموداً من النور فوقها، وهي التي نصب عليها يوشع عليه السلام قبة الزمان أو خيمة الاجتماع التي أنشاها موسى عليه السلام في التيه. وبنى داود عليه السلام عندها محرابه، فيما شيد سليمان عليه السلام عندها المعبد العظيم المنسوب إليه كما عرج الرسول صلى الله عليه وسلم من فوقها إلى السماء في ليلة الإسراء.[١٥]

جـ – البراق: وهو الحائط الذي يحيط بحرم المسجد الاقصى من الناحية الغربية، ويعتبر جزءاً لا يتجزء من الحرم الشريف. وسمي بهذا الإسم، لأنه المكان الذي ربط عنده الرسول صلى الله عليه وسلم براقه ليلة الاسراء والمعراج. ويسميه اليهود حائط المبكى، لاعتقادهم أنه من بقايا هيكلهم القديم الذي عمره هيرودوس سنة ١٨ ق.م، ودكه تيطس سنة ٧٠ م. ولذلك، أخذوا يقدسونه وراحوا يزورنه.

وبالنسبة للمسيحيين، فإن كنيسة القيامة التي بنتها الملكة هيلانة سنة ٣٣٥ ميلادية، في الموضع الذي أكتشف الرومان فيه صليباً قالوا أنه الذي صلب عليه المسيح تعد أهم مكان مقدس للديانة المسيحية في القدس. وإلى جانب حائط

المبكى، فإن مكان هيكل سليمان عليه السلام يعد مكاناً مقدساً لليهود. وما يزال الصهاينة يبحثون عن مكان الهيكل على مرتفعات القدس، وبخاصة في حرم المسجد الأقصى.[١٦]

ثانياً : العصور التاريخية

هاجر الكنعانيون* بسبب الجفاف والقحط من الجزيرة العربية باتجاه بلاد الشام في الألف الرابع قبل الميلاد. وأقام الكنعانيون داخل بلاد الشام وجنوبها الشرقي (شرقي الأردن) إضافة إلى جنوب فلسطين وساحلها وجنوبها الغربي. وعرفت المنطقة التي نزلت بها القبائل الكنعانية باسم (أرض كنعان)، وشملت الشريط الساحلي الممتد من صيدا وحتى غزة، ومن الساحل الغربي إلى البحر الميت شرقاً، ومن بحيرة طبريا شمالاً إلى بئر السبع جنوباً. [١٧] وكان الكنعانيون ينقسمون إلى قبائل متعددة، اتخذت كل واحدة منها مكاناً خاصاً نزلت فيه، دون أن تتمكن من إقامة دولة موحدة،إلاّ أنها كانت على جانب كبير من الحضارة والمدنية. وتبرز الدراسات التاريخية، بأن قبيلة (يبوس) تعد أول من سكن مدينة القدس وما حولها، وكان ذلك سنة (٢٥٠٠) قبل الميلاد. [١٨]

وعلى الرغم أن الكنعانيين عبدوا عدة آلهة في الإطار العام، إلاّ أن الدلائل تؤكد على أنهم اعتقدوا بالتوحيد ومارسوا هذه العقيدة. فقد أشارت روايات التوراة إلى أن ملكي صادق، الملك العربي اليبوسي الذي حكم مملكة (شاليم – ساليم) وكان صديقاً لخليل الله ابراهيم عليه السلام اعتقد هو وجماعته بالله الواحد العلي مالك السموات والأرض، واتخذ من بقعة الحرم القدسي الشريف معبداً له، وقدم ذبائحه على موضع الصخرة المشرفة. [١٩] وقد مجدته التوراة، كما مجده الانجيل باعتبار أنه أول من قدس الحرم الشريف ووصفاه بأنه "كاهن الله العلي". [٢٠]

وتدل الدراسات التاريخية والأثرية أن الكنعانيين لم ينقطع نسلهم في فلسطين مع كثرة الأجناس التي تعاقبت على السكن فيها، فقط ظلوا فيها حاكمين ومحكومين يشكلون سواد السكان بعد اندماجهم مع المسلمين وإن كان

أسمهم قد غاب في التاريخ.[٢١]

١- العصر الفرعوني :

حكم الفراعنة المصريون القدس في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد، واستمرت فترة النفوذ المصري نحو مئتين سنة، فقد تعرضت المدينة إلى غارات البدو (الخابيرو)، مما أضطر الوالي المصري عبدي خيبا ان يستنجد بأخناتون، غير أن الأخير لم يتمكن من مساعدته. ولم يعد الحاكم المصري للقدس إلا في زمن سيتي الأول (١٣١٧ -١٣٠١) قبل الميلاد.[٢٢] ويستدل من إحدى الرسائل التي أرسلها عبد خيبا إلى سيده أخناتون أن سكان المدينة قد اضطروا إلى مغادرتها والهرب إلى الجبال وبعضهم قد التجأ إلى مصر، حيث جاء في الرسالة:« وأخذ الفلسطينيون يهاجرون رعباً من فظائع بدو الخابيري، فتركوا بلادهم واعتصموا بالجبال ".[٢٣]

٢- العصر اليهودي :

هاجم اليهود فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وفي عام ٩٧٧ أو ١٠٠٠ ق.م تمكن داود عليه السلام من الاستيلاء على المدينة وسماها باسمه، وبنى فيهاقصراً وحصوناً. وخلف سليمان عليه السلام الذي ولد ونشأ في القدس والده وحكم القدس أربعين سنة، بنى خلالها الهيكل في المكان الذي كان يتعبد فيه ملكي صادق. وكان هذا المعبد لجميع اليهود ثم أصبح بعد وفاة سليمان عليه السلام معبداً لأقلية من اليهود حيث أنقسمت الدولة في عهد رحبعام بن سليمان واختفى اسم (مدينة داود) ليحل محله اسم (أورشليم) تجريفاً لاسمها العربي الكنعاني. وخلال ٣٣٧ سنة، وهي فترة حكم اليهود، حكم عشرون ملكاً، مات أكثر من نصفهم قتلاً بأيدي قومهم. وقد أصاب القدس في ظل الحكم اليهودي الكثير من الأهوال، فقد استولى عليها الأعداء مراراً، وسلبوا أموالها وعمت الفوضى الدينية والفساد وشاعت العبادة الوثنية بين سكانها وأكثرهم من اليبوسيين والكنعانيين والعموريين.[٢٤]

٣- العصر الفارسي :

وفي زمن صدقيا بن يوشيا، وهو آخر ملوك اليهود على القدس (٥٩٧ - ٥٨٦) ق.م، أرسل نبوخذ نصر (بختنصر) جيشه وحاصر المدينة ثم احتلها ونقل سكانها من اليهود أسرى إلى بابل بالعراق، ومن بينهم الملك وأحرق الهيكل، وخرب المدينة وجعلها أكواماً من الأنقاض. وبعد أن استولى الفرس على سورية وفلسطين، سمح الملك قورش سنة ٥٣٨ ق.م لمن أراد من الأسرى اليهود بالعودة إلى القدس. وبتأثير زوجته التي يتصل نسبها بملوك اليهود، بني قورش - رغم مقاومة سكان جنوب فلسطين وأواسط الشام - هيكلاً جديداً أسماه هيكل قورش. وظل هذا الهيكل قائماً من سنة ٥١٥ق.. وحتى سنة ٢٠ ق.م حين بدأ هيرودوس الكبير في بناء هيكلاً جديداً.[٢٥]

٤- العصر اليوناني :

استولى الاسكندر المقدوني على القدس سنة ٣٣٢ ق.م، فاستقبله سكانها من اليهود بالترحاب متناسين فضل الفرس عليهم. وبعد وفاة الاسكندر، تأرجحت السيطرة على المدينة في عهد خلفائه، فخضعت أولاً للبطالمة في مصر ثم انتقلت سنة ١٩٨ ق.م إلي حكم السلوقيين في سورية. وقد تأثر السكان في هذا العهد الهلينستي بالحضارة الإغريقية. وقام الملك السلوقي انطيوخوس الرابع بتدمير الهيكل سنة ١٦٥ ق.م، وأرغم اليهود على اعتناق الوثنية اليونانية. وكان من نتيجة ذلك أن اندلعت ثورة المكابيين، ونجح اليهود في إحداث قلاقل وفتن وحروب دامية، وحصلوا على نوع من الحكم الذاتي تحت حكم الحاسمونيين من سنة ١٣٥ وحتي سنة ٧٦ ق.م.[٢٦]

٥- العصر الروماني :

بعد فترة من الفوضى، استولى القائد الروماني بومبي على القدس سنة ٦٣ ق.م، فأصبحت المدينة تتبع الامبراطورية الرومانية، ولكن في عام ٤٠ ق.م.أستولى الفرس على القدس مرة أخرى ثم لم يلبث الرومان أن استردوها بعد عامين،

وعينوا هيرودوس الأرومي ملكاً عليها، فجدد بناء الهيكل ارضاءاً لليهود الذين سمح لهم بشيء من الحكم الذاتي.[٢٧]

ورغم الامتيازات التي خص الرومان السكان اليهود بها عن غيرهم،إلا أن اليهود نظموا عصياناً وقاموا بإحداث شغب مما اضطر تيطس إلى دخول القدس سنة ٧٠ ميلادية لتأديبهم،فأحرق المدينة بعد نهبها حتى أصبحت قاعاً صفصفاً وبيع كثير من الأسرى اليهود في سوق العبيد. ورغم قضاء الامبراطور الروماني المبرم على القدس، إلا أن سكانها من اليهود عادوا إلى التمرد في عامي ١١٥ و١٣٢ ميلادية، وتمكنوا في المرتين من السيطرة على المدينة. فما كان من الامبراطور هدريان إلاّ أن أخمد هذا التمرد بعد تدمير المدينة سنة ١٣٥ ميلادية وحرث أرضها وتشتيت أهلها ما بين قتيل وأسير. ولم يسمح هدريان إلاّ للمسيحيين فقط بالإقامة في القدس، شريطة ألا يكونوا من أصل يهودي. كما أمر الامبراطور بألاّ يسكن (إيليا) أي من اليهود الذين شتتهم في أنحاء العالم. وبذلك يكون الرومان قد دمروا القدس مرتين، انقطع إثرهما تواجد اليهود فيها لمدة ألف سنة، فلم يسكنوها، وإن كان الامبراطور قسطنطين قد سمح لهم فيما بعد بدخول المدينة زائرين مرة واحدة في السنة، وخلال القرون الخمسة التي تلت التدمير الثاني للمدينة استعان الرومان بنحو خمسين يهودياً للخدمة والأعمال الدنيا.[٢٨]

ولما انقسم الرومان عام ٣٩٥ ميلادية إلى قسمين متناحرين،ضعفت مملكة القدس، فهاجمها الفرس واحتلوها عام ٦١٤ ميلادية بمساعدة خمسة وعشرون ألف يهودي. وكان لليهود دوراً بارزاً في الفتن والنهب والدمار والحرق الذي أصاب كنيسة القيامة والأديرة والكنائس حيث قدر عدد القتلى من المسيحيين بأكثر من ستين ألفاً. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً،إذ انتصر هرقل على الفرس عام ٦٢٧ ميلادية، واسترد الصليب منهم وأعاد القدس إلى الحكم الروماني مرة اخرى.[٢٩]

٦- العصر الإسلامي الأول :

بعد قتال دام أربعة أشهر كاملة، طلب البطريرك صفرونيوس من قائد

جيوش المسلمين – أبو عبيدة بن الجراح – أن يستدعي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليسلمه شخصياً مدينة القدس. ودخل عمر بن الخطاب عن طريق جبل المكبر في أيار من سنة ٦٣٦ ميلادية حيث كتب للنصارى وثيقة منحتهم الحرية الدينية في القدس مقابل الجزية بناء على طلبهم. وبناءاً على تلك الوثيقة التي عرفت باسم (العهدة العمرية) بقي النصارى على حالهم في ظل مختلف حقب الحكم الإسلامي،محتفظين بكنائسهم وبحرية أداء شعائرهم ومعتقداتهم.[٣٠]

ومع عمر بن الخطاب وبعده، وفد إلى القدس عدد كبير من الصحابة والتابعين، وأقبل المسلمون عليها من كل ناحية، فمنهم من جاء مع الفتح ومن جاءها بقصد الإقامة، ومنهم من جاءها بقصد الزيارة والتبرك وتلقي العلم، ومنهم من جاءها للاهلال بالحج والإحرام قبل التوجه لمكة المكرمة. وكهذا، أخذ العنصر الإسلامي ينمو وينتشر بسرعة وعاد إلى المدينة طابعها الإسلامي.[٣١]

أولى الخلفاء الأمويون والعباسيون مدينة القدس اهتماماً كبيراً، وكان للمدينة منزلة وعناية خاصة. وشهدت الحركة العلمية في القدس ابتداءاً من القرن الثاني الهجري انتعاشاً كبيراً، تمثل في زيارة وإقامة عدد كبير من العلماء والأئمة من مختلف البلدان. كما شهدت المدينة نهضة طبية، وبرز فيها عدد من الأطباء المشهورين.[٣٢]

وعندما بدأ الضعف يدب في السلطة المركزية للخلافة العباسية، شهدت المدينة عدم الاستقرار والاضطراب نظراً للصراع العسكري على بلاد الشام بين الفاطميين والعباسيين والقرامطة دون أن يؤثر ذلك بشكل من الأشكال على نظرة ومكان القدس عند المسلمين.[٣٣]

٧- العصر الصليبي :

الخلافات بين السلاجقة والفاطميين وتنازعهم المستمر على بلاد الشام من جهة، والصراعات الداخلية بين سلاطين السلاجقة، وهم الذين كانوا يمسكون بمقدرات الخلافة العباسية انئذن، سهل على الصليبين مهمتهم وأدى إلى نجاحهم

في احتلال بيت المقدس وأقسام كبيرة من بلاد الشام. ففي سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م، سقطت القدس بيد الصليبيين، وبذلك انتهت الفترة الأولى من تاريخها الإسلامي الذي دام نحو خمسمائة عام. وارتكب الغزاة في المدينة مجزرة رهيبة، وخصوصاً في منطقة الحرم الشريف حيث ذكرت الاحصاءات أن عدد ضحاياهم بلغ سبعين ألفاً، الأمر الذي يتناقض تناقضاً صارخاً مع تسامح عمر بن الخطاب والمسلمين فيما بعد. كما نهب الصليبيون ما كان في الصخرة والأقصى من كنوز وحولوا منطقة الحرم إلى كنائس ومساكن للفرسان واصطبلات لخيولهم.[٣٤]

وهكذا، قامت في بيت المقدس مملكة لاتينية يتولى الحكم فيها ملك كاثوليكي، وأصبحت البطريركية الكاثوليكية تقوم على إقامة الشعائر الدينية للنصارى بدلاً من البطريركية الأرثوذكسية مما آذى شعور الطوائف المسيحية قاطبة وأثار استنكارها وعدم رضاها. ورغم ما أحدث الصليبون،فإن المسلمون لم يسلموا بالهزيمة والقبول بالأمر الواقع، بل كانوا يتحينون الفرص لاستراجاع المدينة الذي شكل الهدف الأسمى عند القادة المخلصين الذين سعوا لتوحد الصفوف والنهوض بمهمة التصدي الجدي للصليبيين.[٣٥]

٨ – العصر الإسلامي الثاني :

سعى آل زنكي،عماد الدين ثم نور الدين، لتوحيد صفوف المسلمين وممالكهم، وقتال الصليبين في وقت واحد. واستطاع صلاح الدين الأيوبي أن يكمل ما بدآه ويسترد القدس من الصليبين عام ١١٨٧م بعد انتصار المسلمين في معركة حطين. ودخل صلاح الدين القدس صلحاً وسمح للصليبين بمغادرتها بعد دفع جزية بسيطة، وسمح للمسيحيين الشرقيين بالبقاء في المدينة.[٣٦]

وفي خضم الانتصار الذي حققه المسلمون، أزال صلاح الدين الصليب عن قبة الصخرة ووضع فيها المصاحف وعين لها الأئمة. ووضع في المسجد الأقصى المنبر الذي أمر نور الدين بصنعه، ودشن إنشاءات إسلامية كثيرة بهدف تحصين المدينة كحفر خندق عميق وإنشاء سور وأبراج حربية من باب العمود إلى باب الخليل. كما اتخذ إجراءات متتالية لاسكان المسلمين بالقدس، وانشاء

مؤسسات مختلفة فيها، وهي إجراءات تبعه فيها خلفاءه من الأيوبيين.[٣٧]

ولكن ورثة صلاح الدين ارتكبوا بحق القدس – بعد كل ما عملوا من أجلها – خطيئتين كبيريتين: الأولى سنة ١٢١٩م، والثانية سنة ١١٢٩م. ففي الأولى أمر الملك العظم عيسى ابن الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين، متعللاً بالضرورات الاستراتيجية وبالعجز أمام الضغط الصليبي، بتخريب أسوار القدس وكثير من مبانيها خشية عدم القدرة على المحافظة على المدينة إثر احتلال الصليبيين لدمياط في السنة السابقة، وخوفاً من استحكام الصليبين داخل أسوارها إن تمكنوا من أحتلالها فيتعذر بالتالي اخراجهم منها. ومع أسوار القدس، خرب الجند الكثير من معالم المدينة وخرج كثير من سكانها متوجهين إلى الكرك ودمشق تاركين أموالهم وممتلكاتهم. وفي المرة الثانية، سلم الملك الكامل القدس – باستثناء منطقة الحرم – إلى الملك فردريك ملك صقلية. وظلت القدس بيد الصليبيين ١١ سنة حيث عاد الملك الناصر داود واستردها. ولكنها عاد وسلمها للصليبين بعد أربع سنوات مرة أخرى. وفي سنة ١٢٤٤م أسترد الملك الصالح نجم الدين أيوب القدس نهائياً.[٣٨]

٩– الاحتلال البريطاني :

سار التطور الذي شهدته القدس في العصر الأيوبي في خط صاعد وثابت في عصر المماليك الذي دام نحو ٢٦٠ سنة، وقد حظيت فيه المدينة بمظاهر التقدير بوصفها المدينة الثالثة في الاسلام، سواء في النهضة العمرانية أو في قيام المؤسسات الدينية والعلمية. ونالت القدس في عهد السلاطين العثمانيين الذي استمر اربعمائة عام (١٥٥٦ –١٩١٧) اهتماماً فائقاً. فقد أولوا الأماكن المقدسة كل العناية والرعاية، وسعوا في تعميرها وحماية الطرق المؤدية لها. فجددوا قبة الصخرة، وبنو سور القدس لحماية المدينة من العدوان الخارجي والغارات.[٣٩]

ومن المعروف أن الدولة العثمانية بلغت أوج قوتها في القرن السادس عشر، ثم بدأ الضعف يدب فيها مع نهاية ذلك القرن. وقد انعكست هذه الاوضاع على

أقطار الدولة العثمانية عموماً، ومنها فلسطين والقدس. وظهر ذلك في عجز الدولة عن كبح النزاعات المسلحة بين أمراء الاقطاع، وسوء الإدارة، مما أثر بشكل كبير على الحركة الاقتصادية والعلمية والعمرانية في القدس ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي.[٤٠] وبلغ التدهور أوجه في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حيث بدأ تأثير التغلغل الأجنبي في القدس والشعور بالخطر المتزايد يتهدد المدينة من الغربيين وفيهم الصهاينة. وسقطت القدس بأيدي الجيوش البريطانية في ٨ -١٩١٧/١٢/٩، وكان البيان الذي أذاعه الجنرال اللنبي بداية المؤامرة والنكبة التي تعيشها القدس، حيث سارت حملات الاستيطان والتهويد في فلسطين بشكل عام، وفي القدس بشكل خاص بوتيرة متسارعة لتصبح على شكل هجمات استيطانية تستهدف اضفاء الطابع اليهودي على المدينة.[٤١]

ثالثاً : الفضائل

فضل الله سبحانه وتعالى من الأرض بقاعاً احتضنها بتشريفه وتعظيمه، وجعلها مواطن للعبادة والطاعة، تضاعف فيها الحسنات وتنمو بها الأجور. وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة بأن أفضل هذه البقاع هي مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس.[٤٢] فكما ارتبطت الأولى بكونها بلد الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط وحيه، وقبلة المسلمين، وبها الكعبة المشرفة. وارتبطت الثانية بكونها مأوى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، وبها قبره ومسجده. فإن بيت المقدس ارتبطت بالعقيدة الإسلامية من خلال معجزة الإسراء والمعراج حيث خصّها الله بالبركة. والبركة في لغة العرب تعني النمو والزيادة في الخير، وفي الشرع: "ثبوت الخير الإلهي في الشيء".[٤٣] ومن ذلك، قوله تعالى: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من أياتنا إنه هو السميع البصير".[٤٤] وقوله تعالى } ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيه للعالمين {.[٤٥]

١ - البركة المعنوية :[٤٦]

وهي جانب مهم من جوانب البركة التي اختص الله بها أرض بيت المقدس. ومنشأ هذه البركة يرجع إلى عدة أمور هي :

أن هذه الأرض مبعث الأنبياء ومهبط الملائكة، وهي مدفن الرسل والأنبياء والأرض التي يبعثون منها، وهي أيضاً أرض المحشر والمنشر والحساب ووضع الموازين للناس. فبالنسبة للأمر الأول، شهدت أرض فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة نزول الوحي السماوي على كثير من الأنبياء كداود وسليمان وابراهيم ولوط وموسى.

ولم يقتصر نزول الملائكة إلى هذه الأرض على الإيحاء بالتعاليم السماوية

للأنبياء، وإنما تحظى ذلك بنزول دائم للملائكة كما ورد في الحديث الذي رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه بأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يا طوبي للشام يا طوبى للشام». فقال الصحابة رضوان الله عليهم : يا رسول الله وبم ذلك ؟.قال :« تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام». أي أن الملائكة تحفها وتحوطها بإنزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات.

وبالنسبة للأمر الثاني، كثرة ما دفن فيها من الأنبياء والصالحين، فقد جمع الله سبحانه وتعالى الأنبياء لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليصلي بهم إماماً في المسجد الأقصى. فقد روى إبن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد الأقصى قام يصلي فالتفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. وقال إبن كثير في تفسيرة :« بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن ابراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم فدل على أنه الإمام الأعظم والرئيس المقدم ».

وأما بالنسبة لكونها أرض المحشر والمنشر والحساب، فقد روى الإمام أحمد بن حنبل –بمسنده– عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس، فقال :« أرض المحشر والمنشر ». فبعد أن يخرج الناس من قبورهم يوم القيامة يساقون إلى بيت المقدس لينتظروا فصل القضاء بينهم.

ويترتب على كون أرض فلسطين وبيت المقدس أرض مباركة عدة آثار منها : أنها عقر دار الإسلام في وقت اشتداد المحن والفتن، ويظل هذا الأثر ملازماً لهذه الأرض ما دامت تتصف بالبركة الإلهية، وهي لا تنقطع ما دامت السموات والأرض. وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين إلى ذلك في عدة أحاديث صحيحة، ومنها ما رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام ».

وعن آثار بركة أرض فلسطين أن المقيم المحتسب فيها يعتبر مجاهداً في سبيل الله ومرابطاً، لأن هذه الأرض عرضة للغزو في كل وقت لمكانتها وشرفها فهي محل أطماع الغزاة. ولهذا كان قدر أهل الشام وفلسطين أنهم مرابطون إلى يوم القيامة، حيث روى الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل منها مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد ».

وأخيراً، إن أهل بيت المقدس وفلسطين منصورون بإذن الله ما داموا على الحق المبين، ينتقم الله بهم من أعداء الدين. فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قيل يا رسول الله أين هم ؟ قال : بيت المقدس وأكناف بيت المقدس».

وروى الطبراني عن خريم بن فاتك الأسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :« أهل الشام سوط الله في أرضه ينتقم بهم ممن يشاء من عباده، وحرام على منافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم ولا يموتوا إلاّ هماً وغماً ».

٢- البركة الحسية :[٤٧]

وإلى جانب البركة المعنوية، هناك البركة الحسية ومن مظاهرها: الموقع المتوسط. فهي قلب الوطن الاسلامي، وبوابة القادمين من آسيا في طريقهم إلى إفريقية، وبالعكس.

وهي فضلاً عن ذلك، ذات موقع وسط بين بلدان العالم القديم على المستويين الحضاري والعسكري، وبرما كان هذا أحد الأسباب الرئيسة لاختيارها مبعثاً لعديد من الأنبياء، ومستقراً للرسالات السماوية، ومنطلقاً للجيوش الغازية والفاتحة لما حولها من البلاد. فقد مر بها الاسكندر المقدوني عندما غزا مصر، واتخذها عمرو بن العاص قاعدة لانطلاق الجيوش الإسلامية لفتح مصر. وقد

كانت موانئ فلسطين قواعد لسفن المسلمين المتجهة لفتح جزر البحر الأبيض المتوسط. ومن مظاهر البركة الحسية لأرض فلسطين، النشاط الزراعي الكثيف الذي تمخض عن وفرة في البحار والعيون والأنهار. فالقدس تعد من أخصب بلدان فلسطين،تحيط بها بساتين وكروم ومزارع وأشجار فاكهة وزيتون. وتنتشر حولها قرى كثيرة الزروع والأشجار. وفضلاً عن زراعة الأتراج، واللوز، والجوز، إزدهرت زراعة التين والموز والسماق. ويعد الزيتون من أكثر مزروعات القدس وفرة حيث يستخرج منه الزيت، ويحفظ في الأبار والأحواض ليصدر إلى عدد من بلاد العالم. وفي الجملة،فإن سائر جبال فلسطين وسهولها ملأى بالزيتون والتين وسائر الفواكة.

ويرجع سبب هذه الكثرة في الاشجار والثمار إلى وفرة المياه. ففلسطين تقع على البحر المتوسط، وفيها البحر الميت وبحيرة طبريا، وهي بحيرة مشهورة على جانب شواطئها تتفجر ينابيع شديدة الحرارة، وماءها ملحي كبريتي يتخذ علاجاً طبيعياً لترهل البدن والجرب وغير لك. وفيها العيون والجداول والأنهار كعيون عسقلان وأريحا وبيسان والخليل وقيسارية وسلوان، بالاضافة إلى كمية الأمطار الكبيرة التي تسقط على أرض فلسطين في فصل الشتاء.

٣- القدسية :

لقد نص الله تعالى على قدسية هذه الأرض في كتابه الكريم، فقال على لسان موسى عليه السلام: } يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقبلوا خاسرين{[٤٨] والمقدسة في الأية بمعنى المطهرة، ويقال للسطل الذي يتطهر به قدس، ومن هنا جاءت تسمية بيت المقدس. وترجع قدسية أرض فلسطين إلى كونها أرض المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وهما موجودان قبل بعثة سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام، أي قبل بناء هيكل اليهود، وكنيسة المهد الموجودة في بيت لحم وكنيسة النصارى الموجودة في القدس والمعروفة بكنيسة القيامة.[٤٩]

ويترتب على كون أرض بيت المقدس طاهرة أنها لا تقبل شركاً ولا عدواناً ولا

ظلماً ولا علواً في الأرض، ولا يدخلها الدجال في آخر الزمان. ففيما يتعلق بالأولى، كان من أثر قدسية هذه الأرض خلو بيتها المشرف من الأصنام والأوثان في غالبية العصور، وهي لا تتحمل الظلم والعدوان، ولم تمكن للأمم العاتية من العيش فيها ولا الاستقرار عليها. وقد سجل التاريخ الهزائم والنكبات التي حلت بالدول التي تعاقبت على الأرض المقدسة عند تماديها في الظلم والعدوان. وكانت هذه الحقيقة واضحة وجلية، إذ تعرض اليهود لعدة غزوات من الفرس والروم بسبب عودتهم إلى الفساد والعلو في الأرض. كما تعرض الفرس الذين حكموا فلسطين وبيت المقدس في القرن الأول قبل الميلاد إلي أشنع هزيمة على يد الرومان. وأصبحت هذه الحقيقة سنة ماضية في الأمم والدول إلى يوم القيامة، فلما تفرق المسلمون وأنقسموا إلى دولتين، سلط الله عليهم الصليبين. ولما طغى الصليبيون وبغوا في الأرض سلط الله عليهم القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي وحرر المسجد الأقصى من قبضتهم. ولم يتحقق هذا الانتصار إلا بعد أن وحد صلاح الدين الصف الاسلامي وطهر تصورات المسلمين ومعتقداتهم مما علق بها من مفاهيم خاطئة، وشعارات زائفة، وقناعات منحرفة.[٥٠]

ومن آثار قدسية بيت المقدس أن الدجال – كما أسماه الرسول صلى الله عليه وسلم –لكثرة تدجيله وكذبه وإدعائه الألوهية يظهر على كل الأرض ما عدا الكعبة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى ومسجد الطور.

فقد روى أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفة عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الدجال فقال :« وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس، فيهزمه الله وجنوده حتى أن جذم – أصل – الحائط وأصل الشجرة ينادي يا مؤمن هذا كافر يستتر بي تعال فاقتله ».[٥١]

الهوامش

(١) عبد العزيز مصطفى، قبل أن يهدم الأقصى (الرياض ك دار طيبة، ١٩٨٩)، ط ١ ، ص٤٤ .

(٢) ابراهيم جابر، القدس في دائرة الحدث : الجزء الأول (ام الفحم: مركز الدراسات المعارضة، ١٩٩٦، ط١، ص٣٢. ويحيى الفرحان، القدس: قصة مدينة (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ط١،ص٣١. ومصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين : الجزء التاسع – القسم الثاني (الخليل: رابطة الجامعيين ، ١٩٧٥)، ط١،ص١٣.

(٣) عزمي أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير (الزرقاء : مؤسسة باكير للدراسات الثقافية،١٩٩٣) ط١،ص٤٧ .

(٤) يحيى الفرحان، مرجع سابق ، ص٣٢.

(٥) د. شفيق جاسر محمود، تاريخ القدس (عمان: دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ط١،ص٢٣.

(٦) د. شفيق جاسر محمود، مرجع سابق، ص ٢٤–٢٩ .

(٧) د. ابراهيم أبو جابر، مرجع سابق، ص ٤٢ .

(٨) الموسوعة الفلسطينية : القسم العام – المجلد الثالث (دمشق : هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ط١، ص٥٠٩ –٥١٠.

(٩) مصطفى مراد الدباغ، مرجع سابق، ص٥.

(١٠) د. شفيق جاسر محمود، مرجع سابق، ص ١٨ .

(١١) مصطفى مراد الدباغ، مرجع سابق، ص ٣٩–٨٠ .

(١٢) عبد الرحمن بن محمد، مجير الدين العليمي الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، من ص ٧–٨ وص١٨ ومن ص ٢١–٢٢ .

(١٣) محمد بن أحمد بن علي المنهاجي السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول، ص١٠٣.

(١٤) نبيل عبد القادر الزين، القدس (عمان: دار الضياء للنشر والتوزيع، ١٩٨٨)، ص ٤٢ ومن ص٨٣ –٨٤ . قبل أن يهدم الأقصى، مرجع سابق، ص ٤٧ .

(١٥) عبد العزيز مصطفى، قبل أن يهدم الأقصى، مرجع سابق، ص٤٧

(١٦) نبيل عبد القادر الزين، مرجع سابق، من ص ٨٤ – ٨٦ .

(١٧) جفريز، فلسطين إليكم ،جزء أول (بدون ناشر)، ص٣٦.

(١٨) قصة مدينة، مرجع سابق، ص١٨.

(١٩) مصطفى مراد الدباغ، مرجع سابق ، ص٢٦ .

(٢٠) سفر التكوين (١٤:١٨-٢٠) والرسالة إلى العبرانيين في الانجيل (٦:٢٠، ٧:١-٥) .

(٢١) عزمي أبو عليان، مرجع سابق، ص٣٢ .

(٢٢) مصطفى مراد الدباغ، مرجع سابق، ص٢٧.

(٢٣) عزمي أبو عليان، مرجع سابق ص٣٣.

(٢٤) الموسوعة العام ص٥١١.

(٢٥) المرجع السابق، ص٥١١. وشفيق جاسر محمود، مرجع سابق، ص٤٢ .

(٢٦) الموسوعة القسم العام ص٥١١ .

(٢٧) شفيق جاسر محمود، مرجع سابق، ص٤٣ .

(٢٨) عارف العارف، أوراق عارف العارف : المجموعة التاسعة (بيروت:لا ناشر) ، ص٧٩ .

(٢٩) الموسوعة القسم العام ص٥١١ .

(٣٠) د. شفيق جاسر محمود، مرجع سابق، من ص ٩٥-١٠١ .

(٣١) قصة مدينة، مرجع سابق، من ص ص ٢١- ٢٢ .

(٣٢) العسلي، الموسوعة ص ص ٨١١-٨١٢ .

(٣٣) المرجع السابق، ص ص ٨١١ .

(٣٤) قصة مدينة ص٢٤، العسلي ص ٨١٣

(٣٥) د. شفيق جاسر محمود، مرجع سابق، من ص ص ٢٥٠-٢٥٥.

(٣٦) قصة مدينة ص٢٤ .

(٣٧) مرجع سابق، ج١، ص ص ٣٨٣-٣٤ . الحنبلي

(٣٨) العسلي ص ص ٨١٥-٨١٦ .

(٣٩) العسلي ص ٨١٧ .

(٤٠) العسلي، ص ٨٢٢ .

(٤١) جواد الحمد، ص ٥٤٠ .

(٤٢) محمد عثمان شبير، بيت المقدس وما حوله (الكويت : مكتبة الفلاح، ١٩٨٧، ط١)، ص٩ .

(٤٣) الأصفهاني ،المفردات في غريب القرآن (القاهرة : مطبعة مصطفى الحلي ، ١٩٦١)، ص٤٤ .

(٤٤) آية (١) من سورة الإسراء .

(٤٥) أية (٧١) من سورة الأنبياء .

(٤٦) بتصرف عن محمد عثمان، مرجع سابق ، من ص ص ١٩ – ٣٣ .

(٤٧) محمد عثمان شبير، مرجع سابق، من ص ص ١٤ – ١٥ وص١٨.

(٤٨) أية (٢١) من سورة المائدة .

(٤٩) محمد عثمان شبير، مرجع سابق، من ص ص ٣٥ – ٣٦ .

(٥٠) محمد عثمان شبير، مرجع سابق ، ص٤٠ ومن ص ص ٤٣ – ٤٥ .

(٥١) محمد عثمان شبير، مرجع سابق، ص٥٣ .